**محاضرة رقم (3): بيان الحداثة عند أدونيس**

**تمهيد:**

من أهم منجزات الحداثة في الشعر العربي المعاصر فكرة تخلص الشعراء المعاصرون من شعر المناسبات وإعلان ميلاد قصيدة التفعيلة، لا لشيء سوى إنهم يريدون إنهاء فكرة الأغراض التي كانت تسيطر على الشعر، بل وأبعد من ذلك رغبتهم في كسر القديم والثورة عليه والبحث عن آليات جديدة للكتابة تعانق الحلم وتستفز طير الحرية بداخل الذات الشاعرة كي تسبح في فضاء أرحب وأوسع.

1. **مفهوم الحداثة:**

جاء "أدونيس" ببيان الحداثة (1979-1992م) ليتحدث عن معالم الكتابة الجديدة تقول " الناقدة خالدة سعيد":«القصيدة الجديدة عند أدونيس تتجاوز شعر الموضوعات الذي ينطلق من التبعثر إلى الشعر الكلي الذي يبحث عن محاور جديدة لعوالم الذاتية والموضوعية وعن علاقات جديدة لذلك ينتهي التبعثر ويقيم الوحدة خالقا بذلك القصيدة الكلية التي يدخل في نسيجها كل شيء: الأنواع ، الموضوعات كلها، الأشكال واللهجات».

ويذهب "أدونيس" إلى تعريف القصيدة الحداثية بأنها« رؤيا والرؤيا بطبيعتها قفزة خارج المفهومات السائدة هي إذن تغيير في نظام الأشياء وفي نظام النظر إليها» فالكتابة الشعرية الجديدة عنده تقوم على كلية التجربة الإنسانية وتتخلى عن الجزئية والتفكك البنائي، وكذلك النظرة الأفقية الشكلية التي تعتمد على البلاغة والتصوير والزخرفة اللغوية، ولكنه يغوص إلى باطن الأشياء ليراها في صفاءها الحقيقي إنه يستغني عن الفكرة أو الصورة في سبيل الحصول على الكل الشعري، كما يتخلى عن خطابية الفكرة أو العاطفة والتعبير المباشر ليعوضها بالصورة والرمز والغموض واللغة الشعرية.

أن القصيدة الحداثية تتمرد على السائد والمألوف، وتسعى جاهدة إلى التساؤل والبحث عن الجديد، وتستبدل «النموذج باللانموذج والشكل الثابت للقصيدة بالشكل المتحرك، فلكل قصيدة شكلها الخاص وتستبدل الزمن المطلق بالمنفتح المتغير والغنائية الفردية بالغنائية الكونية، كما تستبدل تعريف الشعر القديم المحصور في إطار جزئي إلى تعريف جديد وهو انه تجربة شاملة وموقف من الحياة والعالم والإنسان في إطار متحول».

1. **مفهوم الشعر عند "أدونيس":**

عمل أدونيس على تشكيل شعر عربي حداثي اعتمادا على أسس جديدة في الكتابة الشعرية ودعمها بتنظيرات نقدية تؤكد توجهه ، فالشعر عنده يوجد في القصيدة وكذلك في الأجناس الأدبية الأخرى وليست له مقاييس تحدده ولذلك نجده يدخل قصيدة النثر في الشعر «في رأيي يجب أن تزول الحدود النوعية التي لا تزال تميز بين ما نسميه قصيدة الوزن وما نسميه قصيدة النثر، فليس كل كلام موزون شعرا بالضرورة وليس كل نثر خال بالضرورة من الشعر » فأدونيس لا يجعل الوزن معيارا للفصل بين الشعر والنثر، لان الشعر أكبر من أن يتحدد بهذا المعيار فالشعر عنده هو كل تعبير شعري، أما النثر فهو ما خلى من الشعرية، ويفضل بينهما بجملة من الفروق .

**النثر:** اطراد وتتابع للأفكار. ينقل فكرة محدودة، أسلوبه واضح، محدد المعنى.

أما ا**لشعر**: الاطراد ليس ضروريا، أسلوبه غاض، غايته في ذاته، معناه متجدد بحسب السحر الذي فيه أو بحسب القارئ، ينقل حالة شعورية أو تجربة .

حدد "أدونيس" طريقة استخدام اللغة مقياسا للتمييز بين الشعر والنشر قائلا: «إن طريقة استخدام اللغة مقياس أساسي مباشر في التمييز بين الشعر والنثر، فحيث نحيد باللغة عن طريقتها العادية في التعبير والدلالة ونضيف إليها طاقتها وخصائص الإثارة والمفاجئة والدهشة يكون ما نكتبه شعرا» فاللغة يجب أن تحيد عن المألوف ويشترط فيها الدهشة والإثارة والمجاز، يجب أن يخرج عن طريقة القدماء بان يبدع الشاعر بكلماته تاريخا جديدا مضيفا إلى التحولات التي أنجزها سابقوه بعدا جديدا يؤسس لتاريخ جديد من التحولات «حيث يصبح للكلمة ضوء ووهج جديدان، وعلاقات جديدة وظلال أخرى تتجدد وتتغير حسب سكنها كل مرة في سياقات مبتكرة وجديدة» وعلى هذا النحو تغدوا لغة الشعر مبتكرة ومتحررة من قيود الموروث ، فمفتوحة على المطلق والمجهول وهذا ما يجعلها غامضة تثير التساؤل ويطول طريق الباحث عن معناها.يقول أدونيس :

الخيام الخيام

غابة تتقلب أغصانها في رياح الكلام

وأنا أتقلب في ذات نفسي أردد:

كلا لا أحب الضياء

لا لشيء سوى أنه كاشف

هكذا تصبح اللغة عنده «غابة شاسعة كثيفة الإيقاع والتوهج والإيحاء لا حد لأبعادها، فتتفرع الكلمات من معانيها الموضوعة سابقا في المعاجم أو على الألسنة» وجد "أدونيس" تحت قبعة الحداثة مبتغاه لتفريغ أفكاره ورغبته في الثورة على التقليد ورسمه لمعالم التجديد متكئا على لغة قوامها الغموض والرموز، حتى تصبح مستعصية على الفهم مما يؤهلها إلى أن تصبح ساحرة ومشوقة وفذة يقول:

مزجت بين النار والثلوج

لن تفهم النيران غاباتي ولا الثلوج

وسوف أبقى غامضا أليفا

أسكن في الإزهار والحجارة.

يبدو أن الحداثة عند " أدونيس" لن تتحقق إلا بالتجارب الجديدة والرؤيا المغايرة للغة والخروج عن المألوف، انه يريد لها أن تكون غامضة عصية، لا يمكن القبض على معناها وهنا يتفق مع محمد بنيس الذي حدد وظيفة اللغة الشعرية في السحر والغموض والإشارة فهي لا تعبِّر، ولا تضيءُ؛ آي لا تبوح ولا تصرح، وهذا هو مصدر غموضها، فاللغة الشعرية كيمياء تتحول وتتغير لذلك يجب أن تتحرر من طرق استخدامها القديمة .

فالإبداع الذي يبحث عنه "أدونيس" يجب أن يكون بعيدا عن المألوف ويحيد عن المعاني الظاهرية البسيطة، هذا ما دفع الشعراء الحداثيين إلى رفع أصواتهم مطالبين بضرورة التحرر من القوالب الجامدة للغة، وبذلك تسمو لغة الشعر عن اللغة العادية، ذلك أن لغة الشعر هي لغة الإشارة في حين أن اللغة العادية هي لغة الإيضاح، فالشعر بمعنى ما جعل اللغة تقول ما لم تتعلم أن تقوله، بل وابعد من ذلك تصبح صيحات الشعراء على حد تعبير "البياتي" «فأس الحطاب الذي يقطع أشجار اللغة العذراء ويحملها ليجدد بها اللغة البالية» ويريد "أدونيس " بلغة الإشارة لغة الخلق، فالشعر يخلق لغة لا عهد لنا بها وبذلك يشحن الكلمات بمعان جديدة ويعتقها من معانيها القديمة ، يقول:

ليس من شهواتي

أن أفيء إلى عبرة

أو إلى حسرة وأرقق شعري بها

وأبكي وأبكي شهواتي

أن أظل الغريب العصي

وأن أعتق الكلمات من الكلمات

لابد للكلمة في الشعر أن تعلو على ذاتها ، أن تزخر بأكثر مما تعتد به وان تشير إلى أكثر مما تقول، علينا في الشعر أن نخرج الكلمات من لباسها العتيق، أن نضيئها فنغير علاقاتها ونعلو بأبعادها، فعلا يجب على الشاعر أن يفك أسر اللغة ، أن يحررها من سجنها، ويبعث بها إلى فضاء أرحب وأوسع مليء بالدلالات والإيحاءات، في كل مرة تلتقطها معان جديدة وتلبسها ثوبا جديدا بعيدا عن معانيها الأصلية، إنها الرغبة في إعتاق اللغة من قبضة المعاني المعجمية، كى لا تصبح أحادية المعنى وهذا راجع إلى التغيير الدائم الذي لحق بالإنسان وواقعه «فاللغة ليست ماضية ولا حاضرة بل استشرافية تكشف عن الممكن والمحتمل في المستقبل وهي إلى جانب ذلك ثورية لأنها تريد التغيير ، تغيير العالم والواقع والإنسان».

**3-أسس تجديد اللغة الشعرية عند أدونيس:**

خرج "أدونيس" عن عمود الشعر وخالف الطريقة القديمة من خلال أربعة أسس حددها وحصر فيها أهمية النص الشعري وحداثته:

* المعنى غير المألوف؛ أي أن ينقل النص الشعري أشياء لا يعرفها في الشعر الذي قرأه سابقا، بمعنى إكساب اللغة حلة جديدة مغايرة للقديمة.
* الغموض: أن تصبح اللغة الشعرية عصية على الفهم ، ساحرة، ومشوقة.
* الصورة الشعرية غير المألوفة، وضع القصيدة في نسق جديد بصورة جديدة منفتحة المعنى.
* طرق أبواب المجهول ووضع القارئ أمام قطيعة معرفية وجمالية مع الماضي التقليدي.
* استخدام الكلمة بطريقة غير مألوفة وجعلها متجددة، وفي هذا ميز "أدونيس " بين نوعين من الشعراء، الأول وصفه بان اللغة هي التي تكتبه، والثاني وصفه بأنه هو الذي يكتب اللغة، يحاول أن يقول شيئا لم تقله بطرق لم يألفها، فهو يتساءل دائما ويبحث.

يبدو أن تحرير اللغة بالنسبة لأدونيس لا يكمن في الجوانب النحوية والصرفية بل في تغيير رؤية الشاعر نحو السائد في العالم وهنا ينحصر دور الشعر، فلما يغير الشاعر أشكال التعبير، فهو يغير طرق الإدراك والرؤيا في العلاقة بالأشياء والزمن، فالمسألة مسألة انفعال وحساسية لا مسألة نحو وقواعد. تجاوز أدونيس مسألة اللغة في الشعر إلى مسألة أخرى حيث ربطه بالرؤيا، فالشعر يقوم على الرؤيا بالدرجة الأولى، يقول "البياتي":«الشعر رؤيا مضافا إليها اللغة والتعبير» بينما يرى "أدونيس" أن الرؤيا تتجاوز الواقع بمعطياته المختلفة «تتجاوز الزمان والمكان، يعني أن الرائي تتجلى له أشياء الغيب خارج الترتيب الزماني وخارج المكان المحدود امتداده» فالرؤيا هي كشف وتأسيس لعالم يتجدد باستمرار ولا يتحقق هذا التأسيس إلا بالهدم؛ هدم عالم المحسوسات والثبات «لا تحدث الرؤيا إلا في حالة انفصال العالم عن المحسوسات والمقدسات» وانفصالها عن الواقع لا يعني عدم وجود علاقة بينهما، فهو يشبه هذه العلاقة بعلاقة الوردة برائحتها «فالوردة محكومة ومشروطة بالظروف التي يجب أن تعيش فيها بينما رائحتها مربوطة بهذه الشروط وتتخطاها فهي في آن منها وليس منها» والشعر كالرائحة يخضع للواقع ويتخطاه في نفس الوقت، والحياة في الشعر أكثر غنى وأنقى من الحياة في الواقع مباشرة، لأنه لا ينقلها بتفاصيلها بل له خصوصياته التي تحيل الحدث إلى رمز، فلا يصلنا الحدث كما هو وإنما يصلنا دلالاته وأبعاده في حركية تاريخية ناقلة لحواسنا ووعينا في أفق جمالي تخييلي قوامه اللغة وعلاقاتها.

وكأنه يريد تغيير العالم من خلال شعره باعتباره خرقا للعادة وتغييرا لنظام الأشياء ونظام العلاقات والنظرة للعالم، وهذا التغيير لن يتحقق إلا بتغيير الشاعر في حد ذاته، فالقدرة على التغيير لا تتأتى للشاعر ما لم يغير ويتغير وهو ما قام به " مهيار الدمشقي" حين أراد أن يتغير بأن يتقاسم مع "سيزيف" قدره يقول:

أقسمت أن أكتب فوق الماء

أقسمت أن أحمل مع سيزيف صخرته الصماء

أقسمت أن أظل مع سيزيف

اخضع للحمى وللشرار

أبحث عن المحاجر الضريرة

عن ريشة أخيرة

تكتب للعشب وللخريف

قصيدة الغبار

**ملاحظة هامة:** تجدر الإشارة إلى أن رواد الشعر العربي الحر اتفقوا على قيامه على الرؤيا بالدرجة الأولى ذلك أن الشاعر الكبير هو من جمع رؤى عصره كلها، أما الذي لا يمتلك رؤيا فليس بشاعر.